إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه بالعمل وهو قتل الناقة ، ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والعقر : هو الذبح بالنسبة للنوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ .. ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

و« الصادقين » تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبي مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهى خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل عليهم غضب الله المتمثل فى قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

والرجفة هى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز . ويسميها القرآن مرة بالطاغية . فى قوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ ﴾ [سورة الحاقة]

والتى أصبحوا من بعدها «جاثمين» ، وهو التعبير الدقيق الذى يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه . أو كما نقول : «انسخطوا على هيئاتهم» .

«فالجاثم» هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩ ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد فى ورطة فيقول له صديقه : لاأملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قتل ، فتقول له : «ياما نصحتك» . وأنت تتكلم لكى تعطى لنفسك براءة العذر ، أو كما فعل ﷺ مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم فى قليب بدر ، وقال ﷺ : ياأهل القليب ، يافلان ، يافلان ، يافلان ، هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ، فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقاً ، فقال الصحابة :

- أوتكلمهم يارسول الله وقد جيَّفوا . قال : والله ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايستطيعون أن يجيبونى .

وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه .

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتى باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال . وهى الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلّغ الرسالة لا يتوانى لحظة فى أداء المهمة ، فكأن تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له : « بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وكلمة « قومه » تعنى أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ؛ فعاد كان « هود » من بيئتهم ، و« ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أخاهم المقيم معهم فى البيئة نفسها . ولكنهم « قومه » لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لننتبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربى نهاكم عن هذه العملية القذرة وهى إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقبحها .

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقريع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل ، بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، واستنكار فطرى .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكاريًا ليحرجهم ، لأن العقل الفطرى يأبى هذه العملية : ﴿ أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أى أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهيها النفس غير السويّة . ولكنها عملية قذرة تأباها الفطرة السليمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التزيد فى القبح ؛ فهى ليست قبحاً فقط ، بل تَزَيُّدٌ وإيغال وتعمق فى القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدة لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجا ، وعندما يتزوجها تصير حِلاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزيد فى الفحش . وإذا كان هذا الأمر محرماً فى الأنثى التى ليست حلالاً له ويعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركّب .

﴿ .. أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقلنا من قبل : إن «من» قد تأتى مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة فى كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك فى كلام ربنا . وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى ماسبقكم أحد من العالمين ، و«أحد» هى الفاعل ، وجاءت «من» لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتى لواحد لتقول له : «ماعندى مال» . فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك من بداية مايقال له أنه مال ، وقوله الحق :

﴿ .. مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

يعنى أنه لم يسبقكم أى أحد من بداية مايقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن ينفيها أكثر ، و«من» التى فى قوله : ﴿ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ هى تبعيضية أى ماسبقكم بها أحد «من بعض» العالمين . فما هذا الأمر ؟ لقد سماها فاحشة ، وهى تزيد فى القبح ووصفة لها بأنها لم يأتها أحدمن العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقلياً نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة فى الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولابد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقوات التى تبقيه ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخلافة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً .

وكل خليفة يحتاج إلى اقتيات وإلى إنجاب . و«الاقتيات» خلقه الله فى الأرض التى قدر فيها أقواتها .

والنوع البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتى الإنجاب الخلافى ؛ فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفة ، ثم فى أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ،

فحمل الأم فى الطفل تسعة شهور هو أمر شاق ؛ لأن الإنسان منا إن حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بالتعب ، لكن الأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسيابياً بمعنى أن الجنين فى نشأته الأولى لايبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وبطء لمدة تسة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً فى بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلو جرام فى يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجياً ، وبشكل انسيابى ، فهو لايزيد فى الوزن كل ساعة ، بل ينمو فى كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعنى أن الجنين ينمو انسيابيا بما يناسب الزمن .

نلحظ ذلك أيضاً فى أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لايدربون اللاعب الناشىء على حمل مائة كيلو جرام من أول مرة بل يدربونه على حمل عشرين كيلو جراماً فى البداية ، ثم يزاد الحمل تباعاً بمالا يجعل حامل الأثقال فى عنت ، ويسمون ذلك : انسياب التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعود ، ولهذا لايتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لايدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذا نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسأقدر جدلاً أنك ظللت تنظر إليه دائماً ، فهو لايكبر فى نظرك أبداً ؛ لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع فى الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله -إذن- فى الحمل أن الجنين ينمو انسيابياً ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهى تسير بوهن وتبطىء فى حركتها ، ثم يأتى الميلاد مصحوباً بمتاعب الولادة وآلامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد . ونعلم أن أطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذى يريد الإنجاب يتحمل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهى أعنف شهوة تأتى من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل نجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذن كأن الشهوة هى الطُعم الموضوع فى المصيدة ليأتى بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لنقبل عليها ، وبعد أن نقبل عليها ، ونتورط فيها نتوفر ونبذل الجهد لنربى الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أخللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشىء الأخر أن الرجل فى الجماع يلعب دور الفاعل ، وفى الشذوذ وهو العملية المضادة التى فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والفاحشة هى العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها أمر معلوم بالفطرة ، فساعة يقول : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون الغباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعيًا منجبا ، وحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإنجاب ، وتشتركان من بعد ذلك فى رعاية الأولاد . وأى خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوه فحسب لكى ينبغى أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معا ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط : ﴿ .. بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) ﴾ . ويأتى الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذوذ ؛ لذلك قالوا : ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٨٢) ﴾ .

وما هى الحجة التى من أجلها إخراج لوط والذين آمنو معه من القرية ؟

﴿ .. أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾ [سورة الأعراف]

فهل التطهر عيب ! لا ، لكنهم عاشوا فى النجاسة وألفوها ، ويرفضون الخروج منها ، لذلك كرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين نجد شاباً يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة فى مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمور ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يغازلون النساء فحذرهم من مغبة الخوض فى أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهد المتقشف ، وكأن هذه الصفات صارت سُبة فى نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذى يحيا فى القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وهم حين أرادو طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازفون.

إنهم بذلك قد تعجلوا العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لايحتاج فيه سبحانه إلى حد ، وإذا تساءل أحد: ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل التدين والتبعية ؟ . إن كان أهله بالنسب فالحق يستثنى منهم «إمرأته» ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء. ولذلك نجد سيدنا شعيباً حين ينصح قومه:

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ..﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

ويتعجب القوم سائلين شعيباً:

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ..﴿٨٧﴾ ﴾ [سورة هود]

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل شيء. وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون:

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الحجر]

ومن قولهم يتأكد غباء تفكيرهم ، فماداموا قد قالوا : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ فمن الذى نزل هذا الذكر ؟ ، والذكر هو القرآن، والذى نزله هو الله - سبحانه وتعالى- فكيف يعترفون بالقرآن كذكر، ثم يتهمون الرسول بأنه «مجنون» ؟ ، لأنهم مادموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق يقول سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

إن إمراة سيدنا لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين ، و«غبر» تأتى لمعان متعددة ، فهى تعنى إقامة ومكثا بالمكان ، أوتعنى أى شيء مضى ، كما يقال : هذا الشيء غبرت أيامه ؛ أى مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتى الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعنى بقى ، وغبر أيضاً تعنى مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتق هنا فى هذه الاية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيت فى المكان الذى نزل فيه العذاب ، وبقيت فى الماضى ، وهكذا يكون المعنى ملتقيا . فإن قلت مع الباقين الذين آتاهم العذاب فهذا صحيح . وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

ونحن لاندخل فى تفاصل لماذا كانت امراته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم فى حقها بمالا يقال ، وكأن الله يدلس على نبى من أنبيائه ، لا ، نحن لانأخذ إلا ماقاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به .

ونلحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط فى مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا . . ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة التحريم]

ودقق النظر فى كلمة ﴿ تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بهاالزنا ؟ . ونقول : ربنا لا يدلس على نبى له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية . وكأن الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ؛ فالمسألة هى حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآنى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيًّا منهما كانت متكبرة على زوجها ؛ لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا ﴾ أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبدين ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك فى مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يجانبون الصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ولنفهم أن الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأن الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبى الزوجتين ؛ حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه ، ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتًا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المتجبر ؛ الذى « ادّعى الألوهية » ، لكنه لا يقدر أن يمنع

امرأته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد نبيًّا لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان ، ونجد مدّعى الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختيارى محمى بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وضرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتى نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها . فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جدًّا أن يحصل مثل هذا الأمر لأى امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هى مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فكلمة « أنجينا » تشير إلى أن عذاباً سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلابد أن يدفع الجماعة التى كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أراده لهم من يكرهونهم ، فقد قالوا :

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

لكن ربنا هو الذى أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذى نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإنجاء لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة .

ويأتى العذاب من الحق :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فـهل كـان ذلك المطر مـثل المطر الذى ينزل عـادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول :

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

[سورة الذاريات]

يقول الحق : إنه سيعذبهم بالمطر ، فلنتنبه أنه ليس المطر التقليدى ، بل إنه يعذبهم ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : «فانظر» أى فاعتبر يامن تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبين وتوضح أن الله لايدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

و«مدين» هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر فى هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذى أقام فيه وسمى المكان باسمه ، فلما تكاثر أبناؤه وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه . إذن فـ«مدين» اسم عَلَمٌ على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذى استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى هنا يكرر «أخ» ليبين لك ؛ أنه إن قسا عليهم مرة فسيحنو عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شيء ، وكان مدين قد تزوج من رقبة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقضية العقدية التى يبلغها كل رسول :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

والعبادة هى الطاعة للأمر والطاعة للنهى ، وأنت لاتطيع أمر آمر ولانهى ناه إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساويا لك ، فبعد أن يقول لك : «افعل كذا» ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شيء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : لاتفعل الشيء الفلانى ، فالابن لايناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاتيته تتكون، ويريد أن يعرف الأمر الذى سيقدم عليه .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

ومادام قد قال لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولابد أن تكون معجزة يثبتها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبينة .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

لأن كل المعاصى والكفر تدفع إلى الإخلال فى الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلابد أن الإخلال فى الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتى ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان .

ويظن الناس فى ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس فى الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه فى آخر الأمر جزءاً كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك فى من يشترى . وستذهب أنت بعد ذلك لتشترى من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ماوفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ماهو فى مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكى بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين .

إنك حين تبيع أى سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص فى الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ماليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ؛ لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فلسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يملكون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً .

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

وإذا كانت الخسارة فى الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا نبخس الناس أشياءهم فلا نظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا نسرف لأن السارق يأخذ ماتصل إليه يده ، ولا نغضب ، ولانختلس ، ولانرتشى ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

وبذلك نكون أمام أكثر من أمر جاء بها نبى الله شعيب : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهذه العبادة لتربى فيهم مهابة وتزيدهم حباً واحتراماً للآمر الأعلى ،

وكذلك ليخافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ثم النهى والتحذير من الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، والإصلاح الذى يطلبه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول فى الحياة المسخرة لك ؛ يصرِّفه سبحانه حتى لا يفسد . والنعيم الثانى فى الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذى يخرجه لك من الأرض . والمواشى التى تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح فى الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الغصب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شىء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيمه ويجعله سويا إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد فى الأرض .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

إذن فهذه الأشياء التى هى إيفاء الكيل والميزان يأتى الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا نبخس الناس أشياءهم وألا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج . أوامر ونواهى ، وقد يبدو فى ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فنقول : لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذى تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التى تحتاج إليها هى بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك خير لك ؛ فالذى يقيس لك القماش لا يغشك ، والذى يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذى يكيل لك الذى ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب .

وإذا جئت إلى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ، فأنت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألا يبخسوك شيئاً ، وإذا أفسدت فى الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون احظ منهم فى كل شيء . ولذلك يجب على كل مكلف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى مايؤديه لنفسه : إياك أن تنظر إلى التكليف لك : لاتنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألا ينظر محارمك ، وفى هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألا تضع يدك فى جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألا يضعوا أيديهم فى جيوبك ليسرقوك ، وبهذا نعيش فى أمان .

وإذا طلب التكليف منك وأنت غنى أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالى وتعبى وعرقى ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذى خطط مخلوق لله ، والانفعال الذى انفعل لك فى الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مقدرة . فإياك أن تقول : إنه يأخذ منى . لماذا؟ لأن عالم الأغيار باد وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوى ضعف ، ومن غنى افتقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطى الفقير وتقويه ، فإن افتقرت فسيفعل لك ذلك ، وفى ذلك تأمين حياتك ؛ لأنك تعيش فى مجتمع فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيمانى لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٩﴾ ﴾ [سورة النساء]

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام فى مجتمعك وكن أبا لهم ، وحين تصير أنت أباً لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيشعر اليتيم أنه فقد أبا واحداً ، لكنه يحيا فى مجتمع إيمانى أوجد له من كل المؤمنين

آباء ، فلا يحزن ، وكذلك لن تخاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن غادرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعيت اليتامى وعشت فى مجتمع يرعاهم. ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيعاً فى مجتمع لايقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أبنائى هكذا.

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هى تأميناً للحياة. ومثال ذلك حين نقول للمرأة : تحجبى ، ولا تبدى زينتك لغير محارمك ، قد تظن المرأة فى ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حريتها ، لأنها تنسى أن المنهج يؤمن لها قبح الشيخوخة ، لأنها حين تتزوج صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فتاة فى العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته ، وينظر إلى زوجته نظر غير المكترث بها ، وغير الراغب فيها. فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهى صغيرة ؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها. فإن منعها وهى صغيرة فقد منع عنها وهى كبيرة ؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة.

إذن فإيفاء الكيل ، وعدم إبخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها خير للجميع فى الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

و«ذلكم» إشارة إلى ماسبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيفاء الكيل والميزان ، وألا نبخس الناس أشياءهم ، وألا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك فى إطار ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتى أيضاً لغير المؤمن ، وهكذا تكون كلمة «خير» تشمل خيراً فى الدنيا ، وخيراً فى الآخرة للمؤمن فقط. أما الكافر فسيأخذ الخير فى الدنيا فقط ، ولاخير له فى الآخرة ، فإن كنتم مؤمنين فسيتضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً فى الدينا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ؛ لأن الشيطان قال لربنا : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، وهنا ينهى الحق عن القعود بكل صراط ؛ لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهى عنها ، إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه . ولذلك يقول :

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة غوايات منوعة ، فهذا طريق يغوى بالمال ، وذلك يغوى بالمرأة ، وذاك يغوى بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدعو إليها كل رسول شائعة فى كل ما حوله ؛ فمن يأتى ناحية أى هداية يجد من يصده . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ، والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿ وتبغونها عوجا ﴾ .